

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٧٦)

[الأنعام: 76]

✽ مناسبة الآية لما قبلها:

لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿مَلَكُوتٌ﴾، وَمِنْهُ الْأُمُورُ السَّمَاوِيَّةُ مُشَاهِدَةً لَجَمِيعِ الْخَلْقِ: دَانِيَهُمْ وَقَاصِيَهُمْ، وَهِيَ أَشْرَفُ مِنَ الْأَرْضِيَّةِ، فَإِذَا بَطَلَتْ صِلَاتُهَا لِلْإِلَهِيَّةِ؛ بَطَلَتْ الْأَرْضِيَّةُ مِنْ بَابِ الْأَوَّلَى، جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِتَقِيْمَ لَهُمُ الْحِجَااجَ فِي أَمْرِهَا، فَقَالَ مُسَبِّبًا عَنِ الْإِرَاءَةِ الْمَذْكُورَةِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ (١).

نصبُ الحِجَااجِ
بِالْأُمُورِ
السَّمَاوِيَّةِ بَعْدَ
الْإِرَاءَةِ لِلْمَلَكُوتِ
السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿جَنَّ عَلَيْهِ﴾: أَي: أَظْلَمَ عَلَيْهِ وَسْتَرَهُ، وَغَطَّى عَلَيْهِ، يُقَالُ: جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَجَنَّهُ وَأَجَنَّهُ؛ إِذَا أَظْلَمَ، وَسْتَرَهُ بِظِلْمَتِهِ، وَأَصْلُ (جَنَّ): السَّتْرُ وَالسُّتْرُ، يُقَالُ: اسْتَجَنَّ فُلَانٌ؛ إِذَا اسْتَتَرَ بِشَيْءٍ، وَبِهِ سُمِّيَ الْجَنُّ؛ لِاسْتِتَارِهِمْ وَاخْتِفَائِهِمْ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَالْجَنِّ لَاسْتِتَارِهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ (2).

(2) ﴿كَوْكَبًا﴾: يُقَالُ: كَوْكَبُ الْحَدِيدِ بَرَقَ وَتَوَقَّدَ، وَالْكَوْكَبُ يُطْلَقُ عَلَى بَرِيقِ الْحَدِيدِ أَوْ الْحَصَى وَتَوَقُّدِهِ، وَالْكَوْكَبُ فِي عِلْمِ الْفَلَكَ: جَرْمٌ سَمَاوِيٌّ يَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ، يَسْتَضِيءُ بِضَوْئِهَا (3)، وَوزنه (فَوَعَلَ) عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ، فَالْوَاوُ زَائِدَةٌ، وَأَصُولُهُ الْكَافَانُ وَالْبَاءُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/158.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاعِبُ لِلْفُرْدَاتِ: (جن)، وجمال الدين الكجراتي، مجمع بحار الأنوار: 1/402، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 156، وابن عزيز السجستاني، غريب القرآن: 1/175.

(3) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (كوكب).

وقال الصّاغاني: حقُّ لفظِ كوكب أن يُذكر في تركيب (وَكَبَ) عند حُذاق النّحويّين، فإنّها صُدّرت بكافٍ زائدة، إلّا أنّ الجوهريّ أوردّها في تركيب ﴿كُوكَبًا﴾، ولعله تبع فيه اللّيث، فإنّه ذكره في الرُّباعي، ذاهباً إلى أنّ الواو أصلية⁽¹⁾.

(3) ﴿أَفَلْ﴾: غَابَ، والأفول: غَيْبُوبَةُ النّيّراتِ، كالقَمَرِ والنُّجوم، يُقال: أَفَلَتِ الشَّمْسُ تَأْفُلُ، وتَأْفُلُ أَفْلاً وأُفولاً: غَرَبَتْ، وأصلُ (أفل) يدلُّ على الغيبة، و﴿الْأَفْلِينَ﴾ الغائبين عن العيون⁽²⁾.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيَّةُ:

يبيّن الله في هذه الآية، أنّه لما أَظْلَمَ على إبراهيمَ ﷺ اللّيل وغطّاه، رأى نجماً متألّقاً، فقال - مُستدْرِجاً قَوْمَهُ لِإِزْهَامِهِمُ بِالْتَّوْحِيدِ -: هذا ربي، فلمّا غاب الكوكبُ قال: لا أَحِبُّ الْإِلَهَةَ الَّتِي تَغِيْبُ؛ لأنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ حَاضِرٌ لَا يَغِيْبُ، فعَرَفَهُمْ جَهْلَهُمْ وَخَطَأَهُمْ فِي تَعْظِيمِ النُّجُومِ، ودلَّ على أَنَّ مَنْ غَابَ بَعْدَ الظُّهُورِ كَانَ حَادِثًا مُسْخَرًا وليس ربِّ⁽³⁾.

❁ الإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة حرف الفاء في قوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ رابطةٌ جملةً ما بعدها، وهي تُرْجِعُ أَنَّ المرادَ بِالْمَلُكُوتِ هُوَ هَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ⁽⁴⁾، فهي تَفْرِيعٌ على قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بقرينة قوله: ﴿رَءَا كُوكَبًا﴾، فإنَّ الكوكبَ من ملكوتِ السَّمَاوَاتِ⁽⁵⁾، فإنّه تعالى

الشُّرُوعُ فِي
اسْتِدْلَالِ
إِبْرَاهِيمَ عَلَى
قَوْمِهِ بِبَعْضِ
الظُّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ

تَفْسِيرُ الْإِرْءَاءِ
السَّابِقَةِ
وَتَفْصِيلُهَا

(1) أبو حيان، النهر للماد من البحر: 4/166، ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (كوكب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغِبُ المفردات، والسّمينُ عمدة الخُفَاطِ، وجبل، المعجم الاشتقاقي للوُصْل (أفل)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 260، وابن الجوزي، تذكرة الأريب: 1/98.

(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 184، ونُحْبَةُ من العلماء، التفسير المُبَيَّن، ص: 137، وجماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/312.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/317.

لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْإِرَاءَةَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ؛ فَسَّرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾، فَهِيَ كَالشَّرْحِ وَالتَّفْسِيرِ لَتِلْكَ الْإِرَاءَةِ⁽¹⁾.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿جَنَّ﴾:

وَأَصْلُ الْجَنِّ: سَتَرُ الشَّيْءِ عَنِ الْحَاسَّةِ⁽²⁾، وَلَعَلَّهُ عَبَّرَ بِالْجَنِّ دُونَ الْإِظْلَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾؛ لِيُبَيِّنَ الْوَهْمَ عَنِ إِظْلَامِ الْمَعَانِي عَنِ إِبْرَاهِيمَ ؑ فَبَيَّنَ ابْتِدَاءً أَنَّ الْمُرَادَ السَّتْرَ عَنِ الْحَاسَّةِ فَحَسِبَ.

بيان أن المراد
بالجَنِّ السَّتْرُ
عَنِ الْحَاسَّةِ
دُونَ الْمَعْنَى

وفيه إشارة إلى ما يتضمَّنُه هَذَا الْفِعْلُ مِنَ الْإِشْعَارِ بِالْحِمَايَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى السَّكِينَةِ وَالْهَدْوِ مِنْ أَجْلِ صَفَاءِ الْفِكْرِ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ الْمَلَكُوتَ.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿جَنَّ﴾ لَازِمًا:

جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ لَازِمًا، أَي: سَتَرَ وَأَظْلَمَ، وَقَصَرُهُ - وَإِنْ كَانَ مُتَعَدِّيًا - فَلَمْ يَقُلْ: (جَنَّهُ اللَّيْلُ)؛ دَلَالَةً عَلَى شِدَّةِ ظِلَامِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ⁽³⁾.

الإشارة إلى شِدَّةِ
ظِلَامِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ

دَلَالَةُ الْعُدُولِ عَنْ دُخُولِ اللَّيْلِ إِلَى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾:

عَدَلَ عَنْ دُخُولِ اللَّيْلِ إِلَى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾، لَمَّا فِي مَعْنَى (جَنَّ) مِنْ تَمَكُّنِ الدُّخُولِ؛ بِخِلَافِ (دَخَلَ) فَإِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ السَّتْرُ؛ بِخِلَافِ (جَنَّ) فَإِنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الدُّخُولِ وَالسَّتْرِ.

إفادة المبالغة في
التَّمَكُّنِ وَالسَّتْرِ

دَلَالَةُ حَرْفِ الْجَزِّ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾:

قَوْلُهُ: ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أَي: وَقَعَ السَّتْرُ عَلَيْهِ، فَحُجِبَ مَلَكُوتُ الْأَرْضِ، فَشَرَعَ يَنْظُرُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ.

إفادة المبالغة في
السَّتْرِ وَالتَّغْطِيَةِ

وَلِذَلِكَ عَدَّاهُ بِأَدَاةِ الْاسْتِعْلَاءِ⁽⁴⁾، الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الْمَبَالِغَةُ فِي

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 13/36.

(2) الرُّغَابِ، الْفُرْدَاتِ: (جَن)، وَالْأَلُوسِي، رُوحُ الْمَعَانِي: 187/.

(3) الْبِقَاعِي، نِظْمُ الدُّرَرِ: 7/158.

(4) الْبِقَاعِي، نِظْمُ الدُّرَرِ: 7/158.

السَّتْرِ بِالظُّلْمَةِ حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا غِطَاءٌ؛ إِذِ الْأَصْلُ أَنْ يُقَالَ: جَنَّهُ اللَّيْلُ، أَيْ: أَخْفَاهُ⁽¹⁾.

دلالة تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾:

قُدِّمَ الجَارُ والمَجْرُورُ ﴿عَلَيْهِ﴾ للإشارة إلى تخصيص سيدنا إبراهيم ﷺ في هذا المشهد العام؛ لأنَّ جَنَّ اللَّيْلِ وسَتْرَهُ يَكُونُ لإبراهيم ﷺ ولغيره من الخلق، لكن لما كان موقف إبراهيم موقفَ المتدبِّرِ والمتأملِ، وغيره لا يفكر ولا يتأمل، قُدِّمَ الجَارُ والمَجْرُورُ؛ ليبرزَ الفرقُ بينهما.

سرُّ التعبير بالإضمار في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾:

عَبَّرَ بالإضمار بدلاً من الإظهار بأن يقول: (جَنَّ عَلَى إبراهيم اللَّيْلُ)؛ لأنَّ الإضمار هو ضدُّ الظُّهور؛ لمناسبة المقام، فالفعلُ (جَنَّ) وفاعله (اللَّيْلُ)، يحملان معنى السَّتْرِ والخفاء، فلا مجال للظُّهور، وهذا من بديع المعنى.

من دلالة ذكر ﴿الَّيْلِ﴾ في الآية:

عَبَّرَ بـ ﴿الَّيْلِ﴾ دُونَ الظُّلَامِ؛ لِأَنَّهُ مُقَابِلُ النَّهَارِ، كَمَا قَالَ رَبُّنَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: 62]، فَكُلُُّ مِنْهُمَا يَخْلُفُ الْآخَرَ، أَمَّا الظُّلَامُ؛ فَهُوَ ضِدُّ النُّورِ، فَلَوْ عَبَّرَ بِهِ لَتَوَهَّمَ معنى الظلام المعنوي، وهو الشُّبْهَةُ والحيرة وعدمُ البصيرة، وهذا غيرُ لائقٍ بمقام سيدنا إبراهيم ﷺ؛ لِأَنَّ غَرَضَهُ هُوَ إِخْرَاجُ قَوْمِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الشَّرِكِ إِلَى نورِ التَّوْحِيدِ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿كَوْكَبًا﴾:

ظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿رَعَا كَوْكَبًا﴾ أَنَّهُ حَصَلَتْ لَهُ رُؤْيَا الكَوَاكِبِ عَرَضًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِلتَّأَمُّلِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْأَفَقَ فِي اللَّيْلِ مَمْلُوءٌ بِالكَوَاكِبِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/318.

الإشارة إلى
تخصيص
إبراهيم
في هذا المشهد
العام

مناسبة للمقام
وما فيه من
معنى السَّتْرِ
والخفاء

غرضه إخراج
قومه من
ظلمات الشرك
إلى نور التوحيد

بيان عدم تقصُّد
رؤية كوكب
بعينه

وَأَنَّ الْكُوكَبَ كَانَ حِينَ رَأَاهُ وَاضِحًا فِي السَّمَاءِ مُشْرِقًا بِنُورِهِ؛ وَذَلِكَ أَنْوَرُ مَا يَكُونُ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ رَأَى كُوكَبًا مِنْ بَيْنِهَا شَدِيدَ الضَّوْءِ⁽¹⁾.

دلالة التعبير بالفعل ﴿رَعَا﴾:

عَبَّرَ بِالرُّؤْيَةِ دُونَ الْمُشَاهَدَةِ؛ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ مَعَهَا الْمَشَاهِدَةَ وَالْعِلْمَ، وَلِإِفَادَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ؛ بِخِلَافِ الْمَشَاهِدَةِ، فَإِنَّهَا تَكُونُ بِالْبَصَرِ، وَلَا يَلِزَمُ مَعَهَا الْبَصِيرَةُ غَالِبًا، وَلِيَفْرُقَ بَيْنَ رُؤْيَةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَمُشَاهَدَةِ الْقَوْمِ.

سُرُّ التعبير بالمفرد ﴿كُوكَبًا﴾:

عَبَّرَ بِالْكُوكَبِ مُفْرَدًا، مَعَ أَنَّ السَّمَاءَ فِيهَا كُوكَبٌ؛ لِعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَى تَعْيِينِهِ، فَهُوَ كُوكَبٌ مِنَ الْكُوكَبِ السَّيَّارَةِ فِي الْأَفْقِ، اسْتَدْلَّ بِهِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لَشَدَّةِ ظُهورِهِ، وَلِلتَّدْلِيلِ بِهِ عَلَى ضَلَالِ قَوْمِهِ بِمَا يَحْدُثُ لَهُ مِنَ الْأَفْوَلِ.

علةُ فصل جملة ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ عمَّا قَبْلَهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ اسْتِنَافٌ مَبْنِيٌّ عَلَى سُؤَالٍ نَشَأَ مِنْ (الْجُمْلَةِ) الشَّرْطِيَّةِ السَّابِقَةِ الْمُنْفَرَعَةِ عَنْ بَيَانِ إِرَاءَتِهِ ﷺ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا صَنَعَ ﷺ حِينَ رَأَى الْكُوكَبَ؟ فَقِيلَ: قَالَ عَلَى سَبِيلِ الْوَضْعِ وَالْفَرَضِ: هَذَا رَبِّي مَجَارَاةً مَعَ أَبِيهِ⁽²⁾، فَهُوَ اسْتِنَافٌ بَيَانِيٌّ لَشَبْهِ كَمَالِ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحْمِلُ السَّمَاعَ عَلَى اسْتِكْشَافِ مَا ظَهَرَ مِنْهُ ﷺ مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْإِرَاءَةِ وَأَحْكَامِهَا⁽³⁾.

الرُّؤْيَةُ تَجْمَعُ
الْمَشَاهِدَةَ
وَالْعِلْمَ، وَتَفِيدُ
الْجَمْعَ بَيْنَ
الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ

الاحتجاجُ بِأَيِّ
كُوكَبٍ ظَهَرَ،
لَا بِكُوكَبٍ
مَخْصُوصٍ

حَمْلُ السَّمَاعِ
عَلَى اسْتِكْشَافِ
مَا ظَهَرَ مِنْ
إِبْرَاهِيمَ ﷺ
آثَارِ تِلْكَ الْإِرَاءَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/317.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/153، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/318.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 158 - 159.

نُكْتَةُ تعريفِ المسندِ إليه بالإشارة:

تمييزُ المشارِ إليه
بتعيينه على
وجهِ الخصوص

اسمُ الإشارةِ في قوله سبحانه ﴿هَذَا رَبِّي﴾ يُقصدُ به تمييزُ الكوكبِ من بَيْنِ الكواكبِ، وهذا يُعَيِّنُ أن يكونَ القصدُ الأصليُّ منه هو الكنايةُ بالإشارةِ عن كونِ المشارِ إليه أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عُثِرَ عليه أُشيرَ إليه؛ لأنَّ القومَ كانوا من عَبَدَةِ الكواكبِ، فهم يعظمونها ضمَّنَ معبوداتهم الباطلة⁽¹⁾.

براعةُ القصرِ بتعريفِ الجزأين:

التَّنَزُّلُ مع
الخصمِ
ومجارأته
لاستدراجِهِ إلى
معرفةِ الحقِّ
من أنفعِ أدواتِ
الجدالِ

تعريفُ الجزأينِ في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مفيدٌ للقصر؛ لأنه لم يقل: (هذا ربُّ)؛ فدلَّ على أنَّ إبراهيمَ ﷺ أراد استدراجَ قومه، فابتدأ بإظهارِ أنَّه لا يرى تعدُّدَ الآلهة؛ ليصلَ بهم إلى التَّوْحِيدِ، واستبقى واحدًا من معبوداتهم، ففرضَ استحقاقَهُ الإلهيةَ؛ كيلا ينفروا من الإصغاءِ إلى استدلالِهِ⁽²⁾.

وإنَّما قال إبراهيمُ ذلك على سبيلِ التَّنَزُّلِ مع الخصمِ لا على سبيلِ الاعتقادِ، فقد سَبَقَ قولُهُ لأبيه: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذَا دُعِيَ الْإِبْرَاهِيمَ إِعْبَادِي أَنْ يَبْتَغِيَ الْكُفْرَ بَعْدَ مَا بَلَغَ مِنْهُ الْبُحْرَانُ﴾ وهو دليلٌ على هِدَايَةِ إبراهيمَ وعِصْمَتِهِ مِنْ سَبَقِ مَا يُوهِمُ ظَاهِرُ قولِهِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مِنْ نِسْبَةِ ذلكِ إليه على أنَّه أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ، وإنَّما ذلك على سبيلِ التَّنَزُّلِ مع الخصمِ، وتقريرِ ما يَبْنِي عليه مِنْ استحالةِ أن يكونَ مُتَّصِفًا بصفاتِ المخلوقين⁽³⁾، فَإِنَّ المُسْتَدِلَّ على فسادِ قولِ يحكيه على رأيِ خصمه، ثم يَكُرِّرُ عليه بالإبطالِ من أقوى وجوه الاستدلالِ⁽⁴⁾.

جملة ﴿هَذَا رَبِّي﴾ بين الخير والاستفهام:

شَدُّ الانتباهِ
لاستجلابِ
الخطابيين
إلى النَّظَرِ
في خطئهم
وَضَلالَتهم

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾: فكأنَّه مِنْ بَصَرِهِ أن أتى بهذا الكلامِ الصَّالِحِ لأن يكونَ خبرًا واستفهامًا؛ لِيُوهِمَهُمْ أنَّه مُخَبِّرٌ، فيكونَ ذلك أنفى للغرضِ وأنجى مِنَ الشَّعْبِ، فيكونَ أَشَدَّ استجلابًا لهم إلى إنعامِ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ: 318 - 319.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ: 7/319.

(3) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 4/562.

(4) أبو السَّوْدُودِ، إرشاد العقل السليم: 3/153.

النَّظَرِ، وتبَيُّهاً على موضع الغلط وقَبُولِ الحُجَّةِ⁽¹⁾، فعلى الاستفهام يكون توبيخاً يُقصدُ به الإنكارُ، وتقديرُه: أهدأ ربِّي؟⁽²⁾

التعبيرُ بالرُّبوبيَّةِ مع الكواكبِ، والألوهيَّةِ مع الأصنامِ:

لعلَّ سلوكَ هذه الطَّريقةِ في بيان استحالةِ ربوبيَّةِ الكواكبِ، دون بيانِ استحالةِ الهيَّةِ الأصنامِ؛ لما أنَّ هذا أخفى بُطلاناً واستحالةً من الأوَّل، فلو صدَّعَ بالحقِّ من أوَّل الأمرِ، كما فعله في حقِّ عبادةِ الأصنامِ؛ لتمادَوْا في المكابرةِ والعنادِ، ولجَّوا في طُغيانهم يعمهون⁽³⁾، ولعلَّهم كانوا يعتقدون تأثيرها استقلالاً دون تأثير الأصنامِ؛ ولهذا تعرَّضَ لبُطلانِ الإلهيَّةِ في الأصنامِ والرُّبوبيَّةِ فيها⁽⁴⁾.

سرُّ إضافةِ لفظِ (رَبِّ) إلى ياءِ المُتكلِّمِ ﴿رَبِّي﴾:

أضافَ لفظَ (الرَّبِّ) إلى ياءِ المُتكلِّمِ دون الإضافةِ إلى القومِ (هذا ربكم)؛ لإشعارهم بما يفتح قلوبهم لسماعِ دعوته بعد ذلك بالتَّوحيدِ، والتَّبرُّؤِ من كلِّ شركٍ، فكانتِ الإضافةُ الَّتِي تحملُ معنى القُربِ منه، والإشعارِ بتفخيمه وتعظيمه، وكلُّ ذلك على سبيل الفرضِ والتَّقديرِ، مجازةً لأبيه وقومه في مناظرته لهم، وهو بذلك يمهِّدُ لإبطالِ مزاعمهم في هذه الكواكبِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم⁽⁵⁾.

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفْلَ﴾:

عَبَّرَ بالفاءِ دون الواوِ، فلم يقل: (ولمَّا أفل)؛ لأنَّ الفاءَ تربطُ الجملةَ الَّتِي بعدها بما قبلها، وهي بذلك تفيد التَّرتيبَ، فدلَّت على أنَّ هذا المشهد ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ كان بعد الإراءة الَّتِي بسببها وُصفَ بأنَّه من الموقنين.

اعتقادُ قومِ
إبراهيمَ تأثيرَ
الكواكبِ فيما
هو من خصائصِ
الرُّبوبيَّةِ

إشعارُ إبراهيمَ
قومهَ بما
يفتحُ قلوبهم
ويهيئهم لقبولِ
دعوته

ربطُ الجملةِ
السَّابِقَةِ
باللَّحقةِ لإفادةِ
التَّرتيبِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/159.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/136 - 137.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/153.

(4) الألوسي، روح المعاني: 4/188.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/153، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/309.

سرُّ التعبير بـ ﴿فَلَمَّا﴾ دون غيرها من الحروف:

الإشارة إلى أنَّ
الأفول لا يأتي
مرة واحدة

عبر القرآن الكريم بـ ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾، للإشارة إلى أنَّ الأفول لا يأتي مرة واحدة، بل يأخذ فترة زمنية للاختفاء بالكامل، لذلك كانت (لَمَّا) هي المناسبة للتعبير عن هذه الحالة من التدرُّج في الأفول، بخلاف غيرها، فلا يفي بوصف هذه الحالة.

بلاغة التعبير بالأفول:

الاستدلال
بالحركة
والحدوث على
زوال السلطان
وحقارة شأن
المعبود الباطل

قوله: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ الأفول حركة، والحركة تدلُّ على حدوث المتحرك، ولا يُظنُّ به ﷻ أنه قال ما قاله أولاً عن اعتقاد رُبوبيَّة الكواكب؛ لأنَّ الله تعالى قد دلَّ على بطلان هذا التَّوهم بالإخبار بأنَّه أراه ملكوت الخافقين، وجعله موقتاً، فأسند الأمر إلى نفسه تنبيهاً لهم، واستدلَّ بالأفول؛ لأنَّ دلالتَّه لزوال سلطان الكوكب وحقارة شأنه أتمُّ⁽¹⁾، فالَّذي يأفل، ويغرُب، ويزول نوره، وينتقص ضوءه، ويذهب سلطانه، ويصير كالمعزول؛ ومن كان كذلك لم يصلح للإلهيَّة.

وممَّا يُذكر في سرِّ بلاغة التعبير بالأفول: أنَّه ﷻ إنَّما كان يُبَاطِرهم، وهم كانوا مُنجمين، ومذهبُ أهل النُّجوم أنَّ الكوكب إذا كان في الرُّبُع الشرقيِّ، وكان صاعداً إلى وسط السَّماء؛ كان قوياً عظيماً التأثير، أمَّا إذا كان غربياً وقريباً من الأفول؛ فإنَّه يكون ضعيف الأثر، قليل القوة، فنَبَّه بهذه الدَّقِيقَةِ على أنَّ الإله هو الذي لا تتغيَّر قدرته إلى العجز، وكماله إلى النُّقصان، ومذهبكم أنَّ الكوكب حال كونه في الرُّبُع الغربيِّ يكون ضعيف القوة ناقص التأثير عاجزاً عن التدبير، وذلك يدلُّ على القدح في إلهيَّته⁽²⁾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/159.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/191.

سرُّ إضمارِ الفاعلِ في قوله: ﴿فَلَمَّا أَفْلَ﴾:

أضمرَ الفاعلَ في قوله: ﴿فَلَمَّا أَفْلَ﴾، ولم يقل: (فلما أفل الكوكبُ)؛ لسبقِ ذكره في قوله: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾، وحذفُ ما يُعلمُ جائزٌ، أيضًا لأنَّ أفلَ الكوكبِ غيَابٌ، واختفاءٌ عن رؤية المشاهدين، والإضمارُ يناسبُ مقامَ الاختفاء والأفل.

الإضمارُ يناسبُ
مقامَ اختفاءِ
الكوكبِ وأفوله

ترتيبُ النتائجِ على (الأفل) دون الطلوع أو الظهور:

ترتيبُ هذا الحكمِ ونظيرتيه على الأفلِ دونَ البزوغِ والطلوعِ والظهورِ من ضروريَّاتِ سوقِ الاحتجاجِ على هذا المساقِ الحكيمِ؛ فإنَّ كلاً منهما، وإن كان في نفسه انتقالاً مُنافياً لاستحقاقِ الرُّبوبيَّةِ قطعاً، لكن لما كان الأوَّلُ حالةً مُوجبةً لظهور الآثار والأحكام مُلائمةً لتوهمِ الاستحقاقِ في الجملة؛ رتبَ عليه الحكمَ الأوَّلَ، أي: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، على الطَّريقة المذكورة في التَّنْزُلِ مع الخصمِ، وحيث كان الثاني حالةً مقتضيةً لانطِماسِ الآثارِ وبُطْلانِ الأحكامِ المُنافيِّينِ للاستحقاقِ المذكورِ مُنافاةً بَيِّنَةً يكادُ يعترفُ بها كلُّ مكابرٍ عنيدٍ؛ رتبَ عليها ما رتبَ⁽¹⁾، ولم يستدلَّ بالطلوعِ والظهورِ؛ لأنَّه وإن كان حركةً دالةً على الحدوثِ والنقصانِ، فهو شرفٌ في الجملة من نظرٍ معبوديه، أمَّا الأفلُ؛ فأهلُ الفهمِ والبصيرةِ يأخذون منه عدمَ صلاحِيَّتِهِ لِلْإِلَهِيَّةِ؛ لأنَّ الأفلَ مِنَ الإمكانِ، والممكنُ لا بدُّ له من مُوجدٍ واجبِ الوجودِ، وأيضاً لأنَّهم يفهمون منه الحدوثَ والحركة، وأيضاً الأفلُ فيه زوالٌ لنوره وسلطانه؛ وما كان كذلك لا يصلحُ لِلْإِلَهِيَّةِ⁽²⁾.

ظهورُ آثارِ
الصَّعْفِ وزوالِ
السُّلْطَانِ عندِ
الأفلِ والغيابِ

سرُّ تكرارِ ﴿قَالَ﴾ في مشهدِ الحوارِ والمجادلةِ:

تكرَّرَ لفظُ ﴿قَالَ﴾ في هذه الآياتِ؛ لأنَّه مبنِيٌّ على الحوارِ الدائرِ بين إبراهيمَ وقومه، وفي هذا إشارةٌ إلى أن يسلكَ الدَّاعِيَةُ في دعوته

القولُ الحسنُ
من مناهجِ
الدَّعْوَةِ في
الحوارِ

(1) الألوسي، روح المعاني: 4/191.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/159.

القول اللَّيِّنَ؛ لَأَنَّهُ يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَيَهْدِي الْعُقُولَ، وهذا ما سلكه إبراهيم ﷺ في استدراج قومه لإقامة الْحُجَّةِ عليهم.

إِثَارُ الْكِنَايَةِ بِنَفْيِ حُبِّ الْأَفْلِينَ:

لِزُومِ نَفْيِ الْمَحَبَّةِ
لِنَفْيِ الْعِبَادَةِ

كُنِيَ بِعَدَمِ الْمَحَبَّةِ عَنْ عَدَمِ الْعِبَادَةِ؛ لَأَنَّهُ يَلْزِمُ مِنْ نَفْيِ الْمَحَبَّةِ نَفْيُ الْعِبَادَةِ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ؛ فَلَمَّا غَابَ قَالَ: ﴿لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ فَضْلاً عَنْ عِبَادَتِهِمْ⁽¹⁾، فَأَبْطَلَ رُبُوبِيَّةَ الْكُوكَبِ بِعُرُوضِ الْأَفُولِ لَهُ بِالتَّكْنِيَةِ عَنِ الْبَطْلَانِ بِأَنَّهُ لَا يَحِبُّهُ لِأَفْوَلِهِ؛ لِأَنَّ الْمَرْبُوبِيَّةَ وَالْعِبُودِيَّةَ مَتَقَوِّمَةٌ بِالْحُبِّ، فَلَيْسَ يَسْعُ مِنْ لَا يَحِبُّ شَيْئاً أَنْ يَعْبُدَهُ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ فِي الْكَلَامِ مُضَافاً، أَي: لَا أَحِبُّ عِبَادَةَ الْأَفْلِينَ، أَوْ لَا أَحِبُّ أَنْ أَتَّخِذَهُمْ آلِهَةً، فَحَذَفَ بَدَلَ الْإِشْتِمَالِ لِحُجُوزِ حَذْفِهِ، أَوْ: لَا أَحِبُّ رُبُوبِيَّةَ الْأَفْلِينَ لِعَدَمِ صَحَّتِهَا، فَحَذَفَ الْمُضَافَ، أَوْ: يَقْدَرُ مُضَافٌ نَاصِبٌ لِمَفْعُولِينَ، أَي: لَا أَحِبُّ اتِّخَاذَ الْأَفْلِينَ آلِهَةً⁽²⁾.

وَمِمَّا يُذَكِّرُ فِي سِرِّ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ الْحُبِّ، الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ التَّعْبِيرَ بِعَدَمِ الْمَحَبَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ عَنْ عَدَمِ الْعِبَادَةِ، مُشْعِرٌ بِأَنَّ الْعِبَادَةَ يَجِبُ أَنْ تُؤَسَّسَ عَلَى الْمَحَبَّةِ الْمَتَمَكِّنَةِ فِي قَلْبِ الْعَابِدِ؛ لِيَكُونَ إِقْبَالُهُ عَلَى الْعِبَادَةِ بِشَغَفٍ وَهَمَّةٍ.

دَلَالَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿الْأَفْلِينَ﴾ فِي مَقَامِ الْمُنَاطَرَةِ:

الْأَفُولُ يَدُلُّ عَلَى
بُطْلَانِ رُبُوبِيَّةِ
الْكُوكَبِ

اخْتَارَ لَفْظَ (الْأَفُولِ) فِي مَقَامِ الْمُنَاطَرَةِ؛ لِأَنَّ الْأَفُولَ حَرَكَةً، وَالْحَرَكَةُ تَدُلُّ عَلَى حَدُوثِ الْمُتَحَرِّكِ وَإِمْكَانِهِ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ صِلَاحِيَّتِهِ لِلرُّبُوبِيَّةِ، لِزَوَالِ سُلْطَانِهِ وَغِيَابِ مُرَاقَبَتِهِ لِمَعْبُودِيهِ.

دَلَالَةُ حَذْفِ الْمَوْصُوفِ وَإِبْقَاءِ الصِّفَةِ:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ مَوْصُوفٌ مُحْذُوفٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: لَا أَحِبُّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَأْفُلُ، وَلَا أَحِبُّ الْكُوكَبِ الْآفِلَةِ، وَقَدْ دَلَّ

(1) البضاوي، أنوار التنزيل: 2/169.

(2) الألويسي، روح المعاني: 4/189.

الغرض الأصلي
من المناظرة يُبيّن
عجز الكوكب
عن أي وصف
من خصائص
الألوهية

حذف الموصوف وإبقاء الصفة على الغرض الأصلي لهذه المحاورة والمناظرة بين إبراهيم ﷺ وبين أبيه وقومه؛ لأن الغرض ليس الحديث عن ذات الكواكب بقدر ما يكون عن الصفة التي تُنبئ عن عجز الكوكب عن وصف الألوهية.

دلالة التعبير بالآفلين دون المصدر «الأفول»:

عبر بـ ﴿الْأَفْلِينَ﴾ بصيغة جمع الذكور العقلاء؛ بناءً على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، وليدل على وجود آفلين كثيرين ساوهم هذا الكوكب في الأفول، فلا مزية له عليهم في أن يُعبد للاشتراك في الصفة الدالة على الحدوث⁽¹⁾.

جناس الاشتقاق بين: ﴿أَفْلٌ﴾ و﴿الْأَفْلِينَ﴾:

انتظر إبراهيم ﷺ الكوكب إلى أن يأفل - مع علمه السابق بأنه سيأفل - حتى يُحاجَّهُم بما وقع عليه الحس عند أفوله؛ فلما أفل قال: لا أحب عبادة الآفلين المتغيّرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام، فإن الكوكب الغارب يقطعُ بغروبه ممّن طلع عليه، ولا يستقيم تدبير كوني مع الانقطاع⁽²⁾.

وأيّ ما كان، فمبتدأ الاشتقاق علة للحكم؛ لأن الأفول انتقال واحتجاب، وكلُّ منهما ينافي استحقاق الربوبية والألوهية التي هي من مقتضيات الربوبية لاقتضاء ذلك الحدوث والإمكان المستحيلين على الربّ المعبود القديم⁽³⁾، فجاء بهذا الجناس الاشتقاقي لتصوير تلك الحركة الدالة على التغيّر والحدوث حساً.

تعريض إبراهيم
باعتماد قومه،
وسقوط مزية
هذا الكوكب
وغيره

تصوير الحركة
الدالة على
التغيّر والحدوث
حساً

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 167، 565/4، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/320.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 565/4، والهرري، حقائق الروح والريحان: 8/448.

(3) الألوسي، روح المعاني: 4/189.

❁ الفروق المُعْجَمِيَّة:

الأفول والغيوب:

الأفول استتارُ
الشَّيْءِ بشيءٍ
آخر، والغيوبُ
أعمُّ

الأفولُ غيوبُ الشَّيْءِ وراءَ الشَّيْءِ، أي: استتارُهُ به؛ ولهذا يقالُ: أَفَلَ النَّجْمُ؛ لأنَّهُ يَغِيبُ وراءَ جهةِ الأرضِ، والْغُيُوبُ يَكُونُ في ذلك وفي غيره، ألا ترى أَنَّكَ تقولُ: غابَ الرَّجُلُ؛ إذا ذهبَ عَنِ البَصَرِ، كما أَنَّ الأفولَ لم يُسْتَعْمَلْ إِلَّا في الشَّمْسِ والقمرِ والنُّجُومِ، أمَّا الغيوبُ؛ فَيُسْتَعْمَلُ في كُلِّ شَيْءٍ⁽¹⁾.

وممَّا يُذَكِّرُ في الفرقِ بينهما: أَنَّ الأفولَ يُسْتَعْمَلُ في اختفاءِ الشَّيْءِ بعدَ ظُهورِهِ وبزوغِهِ؛ لذلك استُعْمِلَ في اختفاءِ الكواكبِ والشَّمْسِ والقمرِ بعدَ بزوغِها، ولذلك يُقالُ: (أَفَلَ نَجْمٌ فَلانٍ): لمن ظَهَرَ، واشتَهَرَ، ثم قَلَّتْ شهرتُهُ؛ أمَّا الغيبُ فهو: كُلُّ ما غابَ عَنِ الإنسانِ وحواسِّهِ، وهو ما كانَ ضَدَّ الحاضرِ والمُشَاهِدِ كالجنِّ والملائكةِ⁽²⁾.

(1) العسكريُّ، الفروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 63.

(2) د. عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللُّغَوِيَّةُ في القرآن الكريم، ص: 165.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 11، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-63-7

يشتمل على ارجاعات بيبليوجرافية.

مج. 11: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-798-63-7

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»